حكاية أميرة عربية من الخليج

قراءة في مذكرات إميلي روته (1844–1924)، المعروفة كذلك باسم الأميرة سالمة ابنة سعيد بن سلطان، سلطان زنجبار وعمان.

غادرت حياة القصور إلى المنفى، فاستبدلت بحياة الحريم في الشرق حياة الاختلاط في أوربا، واستبدلت بالاسم العربي "سالمة بنت السيد سعيد بن سلطان" اسما أعجميا، هو "إميلي روث"، وبمعتقدها الإسلامي معتقدا مسيحيا. ثم استرجعت الشرق، وموطنها الأصلي في زنجبار، عبر كتابها "مذكرات أميرة عربية"، فكيف بدا ذلك الشرق الذي هجرته في كتابتها، وهي تستعيده في المنفى؟

أطلّت الكاتبة على الشرق من منظور الشخص الذي يعيش في المنفى، وكتابتها هي كتابة المنفيّ الذي اقتُلع من المكان الذي ولد فيه، وأخفق في مدّ جسور الاندماج مع المكان الذي أصبح فيه وعلى الرغم من اختيار الأميرة العمانية، سالمة بنت سعيد، لحياتها الجديدة وخوضها تلك المغامرة التي نقلتها من الشرق إلى الغرب؛ إلا أنها ظلّت تتأرجح بين العالمين، فلم تتمكن من الاندماج في المجتمع الأوربي وتصبح غربية على الرغم من محاولاتها، ولم يعد بإمكانها أن تعود إلى المجتمع الشرقي الذي غادرته لكنه ظلّ يسكنها. وحينما قررت كتابة مذكراتها ظهرت فيها بوضوح شخصية ذلك الإنسان المنفيّ المنشطر بين حال من الحنين الهوسي إلى المكان الأول، وعدم القدرة على اتخاذ القرار بالعودة إليه، وينتج هذا الوضع إحساسا مفرطا بالشقاء لا يدركه إلا المنفيون الذين فارقوا أوطانهم، ومكثوا طويلا مبعدين عنها، فاقتلعوا من جذورهم الأصلية، وأخفقوا في مدّ جذورهم في الأمكنة البديلة. وهذا الوصف يعبّر عن حال الأميرة في منفاها، الأمر الذي يدعونا إلى أخذ الحيطة والحذر ونحن نتتبع الصورة التي رسمتها لعالمها في كلا المكانين، الشرق والغرب، لأن هذه الكتابة قد تفتقد للدقة؛ بسبب حال المنفي النفسية التي تجعله يتأرجح بين عالمين، ويعجز عن امتلاك أي منهما.

بدت الأميرة مهووسة بالدفاع عن الشرق الذي تنتمي إليه، ومقارنته بالغرب الذي تعيش فيه، وكانت تنحاز غالبا لصالح هذا الشرق، محاولة تفسير بعض الظواهر التي يرى فيها الآخر عيبا، أو جهلا، أو تخلّفا، مدّعية قصور فهم الآخر وسطحيته، أو أن لديه من العيوب ما هو أكثر فداحة من عيوب الشرق، أو أن هناك ما يختبئ وراء ادعاءاته من أطماع استعمارية ومحاولات لفرض ثقافته على الشعوب التي يسمها بالمتخلّفة. ولكنها في الوقت نفسه كانت تكشف عن عيوب الشرق، وتناقضاته، وجهله، وتخلّفه، الأمر الذي أوقعها في نوع من عدم الانسجام في أحكامها.